

غداً ، او بعد غد على الاكثر، سيمرض عليك قرار فصلي بعد عمر من الخدمة بلغ سبع سنوات طوال... وستوقع يا سيدي المدير هذا القرار! وثق انني لا الوملك على هذا، فن اين لك ان تعرف أن وراء الاسم الذي امامك ، ومبررات الفصل من تغيب واهمال ، مأساة امرأة لا تعرف كيف تدفع باللمعة الى فيها . وكيف وأين تقضي حاجتها !.. امرأة كانت في يوم من الأيام فرحتي وسلوتي .. أعني زوجتي .

ومن أين لك أن تدرك - يا سيدي المدير - تلك النظرات الحائرة التي يرسلها أطفال صغار، وهم يرون أهم التي كانت الى عهد قريب خير النساء تتلوى ضاحكة باكية في آن معاً. كم ضحكوا لضحكتها وبكوا لبكائها ولكن سريعاً ما تغير حالهم ... وكأنا مدتهم غريزتهم النقية بما عجز عن ادراكه عقلم الصغير . وظهرت في عيونهم ظلال المأساة وخيالاتها .

اقول يا سيدي المدير انك لن تعرف شيئاً من هذا كله .. وربما بدافع من شفقة طارئة سألت عني ... عن هذا الشخص - سعد المشاوي - الذي ضاقت به الشركة، والذي لم يبد يؤدي من الخدمات ما يستحق معها الجنيهاات التسعة التي يتسلمها في اول كل شهر .

نعم ، ربما سألت ، وربما قالوا لك في كثير من الأسف كيف كان سعد هذا ، مثلاً للحيوية والانطلاق .. وربما حدثوك كثيراً عن اخلاقه وطباعه والتطورات التي طرأت عليها ... وربما بدافع من قضية الوقت وإحياء السر ،

شطط بك خيالك باحثاً عن السبب

الذي من أجله ينقلب الشباب

النشيط المتليء حيوية الى كهل

صغير مظلم المينين ... ربما ...

ولكنك لن تعرف! ليس لانك

فاقد الانسانية يا سيدي، ولكن

لان انسانيتك من نوع آخر ..

انسانية تبتهج وبتنس ولكن ليس للأسباب نفسها التي تمكر انسانيتنا وتفرحها . وأنا لا اقول هذا مجاملة ... فالمجاملة - يا سيدي المدير - تستدعي قدراً

من الروابط البشرية التي حرمت منها في عالمي الاسود المغفل .. ولكنني أقول

لك أن لك انسانيتك التي لمستها بنفسي ... فلن أنسى يوم أن مرت عليك

ابتسك الجميلة مع زوجها بمناسبة سفرهما الى الخارج في رحلتها السنوية ...

لقد خرجت معها الى باب الشركة العمومي ، وفي عودتك مرت بي، ولحمت

في حينك - يا سيدي المدير - دموعاً كثيرة ... ويومها تعرفت على

انسانيتك الرقيقة المهذبة ، انسانية لم تمارسها لا انا ولا زوجتي التي احبها، والتي

كانت الى عهد قريب مرفأ فرحتي .

أقول يا سيدي انك لن تدرك مشكاتي ولكنني سأحاول أن ابسط امامك

انسانيتك المهذبة قصة انسانيتي الغليظة .

صدقهم يا سيدي اذا قالوا لك انه منذ سنوات سبع تسلمتني شر كنكم شاباً

كاجل ما يكون الشباب فتوة وحيوية وانطلاقاً ، تسلمتني ... وتسلمت معي

كل آمالي وأحلامي .

صدقهم يا سيدي اذا قالوا لك ان الجنيهاات التسعة هذه لم تكن في ذلك

الحين تسعة ولكنها بلغت هذا القدر بعد نضال طويل ... نضال مشترك مع

اخوة لي ، هم انسانيتي الخشنة نفسها ، وهم آمالي نفسها في أن يخلقوا الحياة

في أن ينسلوا يا سيدي ... وأن يعرف نسلهم معنى الحياة .

لقد مضت أيام طوال مثقلة بالجهد والكدر. قبل أن تدخل «هنية» الى منزلي ..

أيام طوال امتصت من شباني ما امتصته ... وكان عزائي الوحيد أن دخلت

«هنية» الى منزلي ... دخلت ومعها فرحة الحياة ... وهنية - يا سيدي المدير -

امرأة ولا كل النساء ... كانت اذا غبت عنها لأعمل ساعات إضافية أمتص بها

بعض القروش ، وعدت ملقياً هذه القروش - في سعادة لاغظة - بين يديها

كانت تنظر الي بعينها الواسعتين السوداوين وعلى فها ابتسامة راثمة، وتقول

« لمن هذا يا سعد ..؟ لمن كل هذا ..؟ » فأقول وأنا اضمها الى صدري ..

« لنا يا هنية .. لسعادتنا .. » فتخفض رأسها وتقول في كلمات منقطعة

« وشبابك يا سعد ... أتبدله رخيصة هكذا .. انت ترهق نفسك، وتبدل

شبابك من اجل هذه القروش القليلة .. » ... وكنت في ذلك الحين اضحك

كثيراً ... كثيراً جداً - يا سيدي المدير - وأقول في نفسي ، كم هي طيبة

هنية زوجتي ...

وكان لنا في يوم من الايام طفل صغير جميل، جاء يعزز سعادتنا تلك ...

طفل عزيز تحوطه هالة من حبنا وفرحتنا ... وعرفت القروش القليلة التي

كنت اكتبها من ساعات العمل الاضافية طرقاً عديدة كإفاني خدمة الضيف

الصغير ... وكنت افول وانا قبل هنية في ساعات الليل الجميلة « انك تدلين

هذا الطفل كثيراً يا هنية ... » فتقول ضاحكة « اتفارق منه يا سعد ..؟ »

فأقول « أبدأ يا هنية ، وانت اعلم بذلك ... ولكن سيأتي يوم يكون

لنا فيه غيره من الاطفال ولن تقدرني على هذا التذليل . »

وتقول وقد اكتسبت كلماتها جدية واضحة : « لا بد أن ينمو قوياً

يا سعد .. وأنت تعلم جيداً ان

الحياة للأقوياء ... من يدري

ما تجبته لنا الايام ..؟ من يدري

يا سعد ..؟ »

وكنت في ذلك الحين - يا

سيدي المدير - اسمع حديثها هذا.

فأضحك طويلاً ... واقبل هنية

قبلات كثيرة ... حتى جاءت الحرب . والحرب لها عندنا مفهوم يختلف عن

مفهومكم ... تماماً. كما تختلف انسانيتنا عن انسانيتكم .. وانا اعرف يا سيدي

- بحكم عملي - كيف تضخم رصيد شركتكم في هذه الحرب، وكيف

تضاعفت ارباحكم ... وكيف تلاعبت ارقام ادخلتكم بين يدي قافزة

قفزات متتابعة .. ولكن .. هذه الحرب نفسها كانت بالنسبة لنا شيئاً

آخر ... لقد باضت لنا همماً وآلاماً عراضاً .. وافرخت فقراً وفزعاً

ودماراً ...

وتعلمت «هنية» كيف تحمل على يدها طفلاً وتدفع بالأخرى «ما كينة

الحطاطة» وتحاول جاهدة أن ترتفع بايرادنا الذي اكات اغلبه الحرب ...

وعرف منزلنا انواعاً من النساء كمن الى عهد قريب - مثلنا - يقضن في

الارض جاهدات لاستخلاص قوتهن - ولكنهما الحرب .. الحرب التي

أغدقت عليك - يا سيدي المدير - اغدقت عليهن ايضاً ... فلحرب يا

سيدي كما تعلم - سوق سوداء قائمة .

وتعلمت «هنية» كيف تقضي لياليها ساهرة تستجدي بعملها فرصة

الحياة لأطفال تضاعف عددهم على مر الايام فاصبحوا ثلاثة ... ثلاثة افواه

تبحث عن طعام ... وثلاثة اجساد صغيرة تبحث عن كساء ... والاولاد

- يا سيدي المدير - يجوعون ويرجعون ولا يعرفون معنى الحرب والفقر

وسوء الحال .

اما انا فقد كنت امضي ليالي الطوال ارقب «هنية» في جهدها

خطأ في الموضوع

قصة بقلم راجي عنيات

الصامت ، واتبع جسدها التي يدب فيه الهزال ونفسي تتمزق أسى وذلاً .
وكم من مرة صرخت في وجهها : «اتركي هذا العمل الشاق يا هنية وارحمي
نفسك ... وارحميني !»

ولكنها كانت تنظر الى نظرات طويلة هادئة وتقول : «ماذا مل يا سمد ..
أيهقل أن نرى اولادنا يموتون جوعاً تحت ابصارنا ... انها الحياة يا سمد ..»
وكثيراً ما كنت اتساءل هل هذه هي الحياة حقاً؟ هل هذا هو مصيرنا
المحتوم؟ .. هل كان ذلك الصراع الطويل الذي خاضته الانسانية مع الطبيعة
لتحقق ذاتها يهدف في النهاية الى ايجاد مخلوقات مثلنا ... لها نفس ظروفتنا؟
لا .. لا بد أن هناك خطأ في الموضوع !. واكاد اصرخ في وجه هنية « هناك
خطأ في الموضوع يا هنية .. غلطة كبيرة لا بد أن نعرفها .. توقفي يا هنية ،
هذا غير معقول على الاطلاق .. » ولكن هنية باصرارها وجلدها كانت
تقتل على لساني تلك الصرخات .

الشيء الوحيد الذي لم يتوقف - يا سيدي المدير - رغم الجرب والفقر
والآلم .. ذلك الشيء الوحيد هو النسل .. نعم فقد حملت هنية في طفلها الرابع
واضعفها الحمل فسقطت مريضة .. وانقطع الايراد الذي كانت تمدنا به ،
وتنازلنا عن كثير من ضروريات الحياة لنمد « هنية » بالدواء الوحيد الذي
وصفه لها الأطباء . الطعام ! اي والله - يا سيدي المدير - الطعام .. وربما
يجب ان يكون الطعام دواء ، ولكن هكذا قال الأطباء .. وحتى هذا
الدواء كان يصعب علينا في الكثير من الأحيان أن نوفره لها كما وصفه الاطباء .
ووضعت هنية طفلتها وكانت جميلة ، لها شكل أمها ولها ضعفها وهزالها ، كانت تضمها
في رفق وتنظر اليها طويلاً فتبدي في عينيها قصة من الآلم والاشفاق .
ومرت الايام و«هنية» لازالت راقدة في فراشها غارقة في بحر من الصمت
لا قرار له ، وتناوبتها ضروب من الاعياء والضعف ، وتزايد هزالها ، وزيد اوجها
ابيض رقيقاً وسطهالة شعرها الاسود الغزير .. وكنت أمضي الساعات الطوال
جالساً أمامها احاول جاهداً أن أبدأ معها حديثاً ولكنني لم اكن احظي بغير
نظرات مرسله من عينيها السوداوين الواسعتين .. نظرات فارغة لا تحمل
مضموناً .. واكاد ابكي قائلاً : « تكلمي يا هنية ، قولي شيئاً .. لا تقتليني بهذا
الصمت .. أرجوك يا هنية ! » فترتمش شفتاها في ابتسامة باهتة تقضي على كل
امل في ان احظي منها ولو بكلمات قليلة تحفف من وحدتي والمي .

وفي صباح يوم من ايام عطلتي ، وكنت قد انتهيت من الاشراف على
حمام الاولاد .. واجلستهم في رقعة الشمس الصغيرة الوحيدة التي تدخل منزلنا ،
قالت « هنية » وهي تنهض من فراشها « سأستحم انا ايضاً يا سمد .. »
وكدت أن اقفز من فرط الفرحه ، فسارعت اليها اعاونها على النهوض ،
وكلمي امل في ان تكون هذه الرغبة بشاره الشفاء والصحة لزوجتي الحبيبة ..
واخذت الالعاب اولادي واضاحكهم حتى اقبلت علينا هنية تحظر كالملائكة وعلى
فها طيف ابتسامة رقيقة .. نهضت افسح لها مكاناً بجانبني وقلبي يرقص فرحاً ..
واخذت « هنية » تمسح شعرها الطويل وانا اتأملها سعيدياً بقربها ، ورأيت
علامات تفكير عميق بادية على وجهها فقلت « في اي شيء تفكرين يا
هنية .. حدثيني .. اخبريني يا هنية .. »

قالت وهي تنظر في اصرار الى المشط الذي في يدها « اترى هذا
المشط يا سمد ؟ »

قلت متعجباً : « طبعاً يا هنية .. »
قالت : « كلما كثرت اسنانه المحطمة كان من السهل تحطم اسنان جديدة ..
انها تتساقط كالذياب يا سمد .. » قلت : « واي شيء في هذا ؟ .. »
قالت وقد قطبت حاجبيها « نحن مثل اسنان هذا المشط .. هذا سمد ، وهذه
هنية ، وهذا سيد ابنتنا البكر ! » قلت مقاطعاً في غضب « ما هذا الكلام يا هنية ! »
واخذت أتأملها ، وقد اعترى وجهها مجموعة من الانفعالات المتناقضة

وفجأة انطلقت هنية في نوبة من الضحك المستمر وقد تشنج وجهها ..
تجمدت اطرافي وتجمر حلقي ، واصابني فزع قاتل ... صرخت : ما بك
يا هنية ! ماذا حدث ؟ فاستمرت هنية في ضحكها الغريب ثم غطت
وجهها بكفيها واطلقت انبثاً طويلاً قاسياً ..

ورويداً رويداً تبدت لذهني المكدود حقيقة الواقع المر .. الحقيقة
المؤلمة .. لقد جنت هنية !. نعم جنت هنية يا سيدي المدير .

ولا تسألني عن ايام الرعب والآلم التي امضيتها وانا ارى زوجتي
الحبيبة تفقد عقلها شيئاً فشيئاً .. ولا تسألني كيف كنت اجلس في ركن
قصي متيبساً أقرب أطفالي الثلاثة يقفون في صف واحد يسكون بعضهم
البعض في حيرة وخوف .. ينظرون الى امهم التي كانت خير النساء ..
كم ضحكوا لضحكها وبكوا لبكائها ، ولكن سريعاً ما مدتهم غريزتهم
النقية بما عجز عن ادراكه عقولهم الصغير ، وظهرت في عيونهم ظلال الأماسة
وخيالاتها .

لا تسألني - يا سيدي المدير - عن ايام الرعب التي قضيتها .. ولا
تسألني كيف تقاعفت العلة على عقل هنية ، حتى اصبحت ترفض ارضاع
طفلها الصغير .. وكيف كنت اسحق الآلمي واعصابي سحقاً ، واضع على
فهي ابتسامة عريضة وانا اقول لهنية :

« الا ترتضعيني يا هنية ؟ .. »

فتقول « من هذه ؟ .. »

اقول « ابنتنا يا هنية .. ابنتي وابنتك ! »

تقول « لماذا نرضعها يا سمد .. »

اقول وانا اكاد ابكي حزناً « لكي تعيش يا هنية ، لكي تعيش لنا »
فتقول غاضبة « ولماذا تعيش ؟ ولماذا ؟ .. »

اقول صارخاً في كلام كالبكاء « هكذا يا هنية .. يجب ان تعيش ..
اتسمعين .. يجب ان تعيش رغم كل هذا .. » وتنظر هنية الي في خوف
وتقول « حسناً .. حسناً يا سمد ، سأرضعها .. من اجلك انت فقط
انت فقط يا سمد .. »

هكذا مضت بي الايام - يا سيدي المدير - وكان من البديهي ان
اهل في عملي ، وان يكثر غيابي .. ولكن من اين لكم ان تعرفوا
هذا كله .. كل ما تعرفونه عني ، اسم .. مجرد اسم .. سمد المشاوي
اسم يقدم لكم عملاً معيناً ويقبض قروشاً معينة .. ولكن فاتكم ان
هذا الاسم لم يخلق هكذا ، اسماً فقط متجرداً عن ظروف معيشته ومأساة
حياته .. وانكم انتم - يا سيدي المدير - مع الحرب وظروف الحياة
القاسية غير العادلة ، قد رسمت حول هذا الاسم حدود المأساة التي انخبط فيها .
ربما تساءلت - يا سيدي المدير - عن السبب الذي دفعني الى ارسال هذا
الخطاب اليك .. ربما فكرت في أن ترجع عن قرار الفصل الذي سيعرض
عليك غداً ، او بمد غد على الاكثر .. ربما .. ولكن ارجوك - يا سيدي
المدير - وقع هذا القرار !. افضلني يا سيدي حتى تستكمل المأساة حدثها ..
وحتى اجد الشجاعة الكافية لأن اصرخ في وجه مجتمع طالما هادنته رغم ما
كال لي من اطلبات ..

اخيراً .. اخيراً فقط - يا سيدي المدير - تأكدت من صحة افكاري القديمة
التي طالما راودتني .. تأكدت من أن هذه ، ليست هي الحياة كما يجب ان
تكون .. وان هناك خطأ في الموضوع .. خطأ ضخماً .. غلطة كبيرة لا بد
ان نعرفها .. وسنمرفها !
الخلاص

سمد المشاوي
راجي عنيات

القاهرة